

تمهيد في

مناهج الكتاب في تراجم الرجال

لِكِتَابِ الإِفْرَنْجِ فِي تَدْوِينِ تَرَاجِمِ رِجَالِهِمْ ، وَتَحْرِيرِ حَيَاةِ نَوَابِغِهِمْ ، وَتَحْلِيلِ سِيرِ أَفْرَادِهِمْ ، وَتَحْلِيدِ ذِكْرِى أَبْطَالِهِمْ ؛ أَسْلُوبِ خَاصٍ تَفَرَّدُوا بِهِ ، وَالتَزَمُوا السَّيْرَ عَلَى مَنَاجِهِ ، وَالضَّرْبَ فِي أُنْحَائِهِ وَفَجَاجِهِ ، قُلْ أَنْ يُعْنَى بِهِ كَاتِبٌ مِنْ كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَشَدَّ أَنْ يُلَمَّ بِمَا فِيهِ مِنْ دَقَائِقَ ، وَنَدَّ أَنْ يَحُومَ حَوْلَ مَا أَتَضَمَّنَهُ مِنْ غَوَامِضَ . وَذَلِكَ أَنَّنَا نَرَى الْكَاتِبَ الْأُورُبِّيَّ يَحَاوِلُ فِيمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ شُؤْنٍ نَابِغَةٍ الَّذِي يَعْرِضُ لِلْكَلَامِ عَلَيْهِ — سِوَاءِ أَنْ كَانَ ذَلِكَ النَّابِغُ فِيلَسُوفًا ، أَمْ كَانَ عَالِمًا ، أَمْ كَاتِبًا ، أَمْ شَاعِرًا ، أَمْ كَانَ بَطْلًا مِنْ أَبْطَالِ الْحَرْبِ ، أَمْ رَجُلًا مِمْتَازًا بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الْحَيَاةِ — أَنْ يَنْتَزِعَ مِمَّا صَارَ إِلَيْهِ شَأْنٌ مَتَرَجِمَةً فِي شَيْخُوخَتِهِ وَفِي عِبْدَانِ كِتْمَالِ أَيَّامِهِ ، صُورَةً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي طَالَعَةِ أَمْرِهِ ، وَمُسْتَهْلٍ نَشْأَتِهِ ، وَمَبْدَأِ طِفُولَتِهِ . فَيَحْمِلُ نَفْسَهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ مِنْ صَنُوفِ الْعَنْتِ فِي اتِّحَالِ ، وَأَلْوَانِ الْإِحْتِيَالِ فِي الْإِخْتِلَاقِ ، مَا كَانَ فِي غِنَى عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِهِ . إِذَا تَرَاهُ لِأَقْلٍ مَلَابِسَةٍ وَلَأَدْنَى خَاطِرَةٍ ، يُنْشِئُ فِي وَهْمِهِ خِيَالًا يُلْبِسُهُ أَلْوَانًا مِنْ دَلَائِلِ طِفُولَتِهِ ، وَيَعْرِضُهُ فِي أَطْوَارِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهَا ، مُتَنَقِّلًا بِهِ مِنَ الطِّفُولَةِ إِلَى الْيُفُوعَةِ ، وَمِنَ الْمُرَاهِقَةِ إِلَى الْفُتُوَّةِ ، وَمِنَ الشُّبُوبَةِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ . مُسْتَرَسِلًا فِيمَا كَانَتْ تَدُلُّ عَلَيْهِ حَرَكَتُهُ فِي هَاتِهِ الْأَطْوَارِ ، وَمَا كَانَتْ تُشِيرُ إِلَيْهِ تَقْلِبَاتُهُ وَتُنْتِجَةُ سَكَنَاتِهِ فِي أَثْنَائِهَا ، مِنْ حِدَّةٍ فِي الذِّكَاةِ ، أَوْ خُمُودِ

في الترجمة ، أو توسط في انقطته ، أو بلوغ الغاية في طبقت الألفية . ثم يرسل على هذه التحولات التي تحيلها أشعة من أوهام مراسته ، مُنْجِهاً في أن يبسط عليك إرادته ليقنعك ما استطاع ، بأن بداءة أمر مترجمه كانت تدل بكل معاني الدلالة على ما انتهى إليه شأنه من بُعد الصيت وذُيوع الذِكر ، وما احتازه من النبوغ والتفوق فيما انتحاه من أعمال الحياة

هؤلاء الكتاب وأمثالهم ومن يحذون حذوهم ، وبضر يون على أوتارهم ، لا أستطيع أن أومن بكثير مما يعرضونه على قرائهم ، من التفتغل في خفايا هذا الشأن ، وأحسبه من موارد خيالاتهم ومنتجات أوهامهم ، إذا أرادوا به أن يصوروه في صورة الخفايا الثابتة . أما إذا قصدوا به التسلية والتلوية ، أو العبث والعظة ، فلا ضير في ذلك ولا قُرْب . وقد أُنْجِسَ لهم شيئاً من العذر في هذا المنحى لافتقارهم إلى ما عني به كتاب العربية من الرواية والسند . وعلى الخصوص قبل أن نوضع نثرية أصول وقواعد ، وقبل أن نصير مراقبة الطفل منذ عهده بالبلاد فنا منتظماً من الفنون ذات الشأن والخطر أما كتاب العربية : فهم على الرغم من استغنائهم بالرواية المسندة ، واحتفال موادهم بالحديث المسلسل ، قلما حفلوا من أمر رجالهم الذين يعنون بترجمتهم إلا بما قد يكون عرف عنهم من تقدم أو تخلف ، ومن تفوق أو توسط ، فيما انتحاه كل منهم من مناحي الحياة ومراشدها ، سواء أكانت علمية أم فنية أم صناعية . ولا يكون ذلك إلا بعد الاستحكام وعض الناجذ . وإلا بعد أن تشكّون الملكة ، وتقوى النُنة ، وتظهر الموهبة . فهم في غالب شأنهم ، لا يعرضون لشيء من ماضي توابعهم الذين يفتنون التعريف بهم إلا بسند متصل ، أو رواية مأثورة ، أو حديث مدوّن . فهذا ما مضى عليه أولهم وتابعهم عليه آخرهم

أما المنهج الذى وضعته نصب عيني فى دراسة الجاحظ ، وفيما أثبتته ههنا من شأنه ، فهو الاعتماد على المصادر المذكورة فى آخر هذا الكتاب ، وعلى غيرها من المطالعات فى شتى الأسفار . مما شذ عن الذاكرة إحصاؤه ، وبنا عنها استقصاؤه . وعلى ما استنتجته من مؤلفات الجاحظ ، وانتزعت من دلائل أغراضها ومعانيها . وبهذا أود أن أكون فى مقام وسط بين عدة كتب العربية ، وبين تزيد كتب الفرنجة . فلا أدعى أننى أعرض ما لم يكن ، فى معرض ما يكون ، ولا أحاول النفوذ إلى علم الغيب أستخرج منه المستور وأكشف المكنون ، ولكنى سأكون فى هذا الكتاب مؤرخاً نظاراً ، وباحثاً نقاباً . أبهرج الزائف وأظهره على حقيقته ، وأؤيد الصحيح وأقره فى منزلته ، مادام ذلك كله لا يخرج عن حد العقل ونطاق الإمكان .

